مجلة العلوم الإنسانية
ISSN 1112-9255
العدد السابع / الجزء(2) - جوان 2017

OEB Univ. Publish. Co.

الاستعارة الحجاجية في المقامات الأدبية

The Argumentative Metaphor with El Makamat EL Adabia

أ.النذير ضبعي، جامعة بسكرة،الجزائر.

تاريخ التسليم:(2016/07/12)،تاريخ القبول:(2017/04/26)

ملخص :

تعد الاستعارة من أهم الخصائص الجوهرية للغات الطبيعية، وقد حظيت باهتمام كبير، حيث اهتم بها اللغويون والأدباء وفلاسفة اللغة وعلماء النفس وغيرهم، وتنقسم بحسب وظيفتها الحجاجية إلى قسمين: استعارة حجاجية، واستعارة غير حجاجية. وسنحاول في هذا المقال دراسة الاستعارة الحجاجية في المقامات الأدبية من منظور اللسانيات التداولية.

الكلمات المفتاحية:الاستعارة الحجاجية، المقامات الأدبية

Abstract:

The metaphor is one of the most essential characteristic of the natural languages and it has received a considerable attention as the linguists ,writers,language philosophers, psychologists and others. It's divided according to their argumentative function into two parts : Argumenttative Metaphor and non Argum- enttative one ,and we will try in this article to study the Argumentative Metaphor with El Hariri Makamats from the perspective of the linguists aspects.

Keywords :The Argumentative Metaphor with El Makamat EL Adabia

مقدمة:

كان اهتمام الإنسان بالحجاج قديما، حيث امتزج بالدراسات المنطقية والبلاغية، وبالجدل والخطابة والفلسفة، فقد عدّ الإغريق البلاغة فنا للتأثير في النفوس. إلا أن فضاء البلاغة سرعان ما تلاشى بعد حلول العصر الصناعي، وهذا لأسباب عدة منها: طغيان العقلانية التي ترفض الاستدلالات الخارجة عن البرهنة. ثم عادت البلاغة والحجاج بقوة بعدما امتزجا بنظرية التواصل، ولعل أهم ما ساعد على ذلك هو التخلص من الوهم القائم على اعتبار اللغة نظاما لرسم الوقائع، فهي حسب التصور الجديدة نظام تتحول به الأقوال إلى أفعال.

أولا: الحجاج في الدرس التداولي: يعدّ اللغوي الفرنسي "أزفالد ديكرو" "O. DUCROT" واضع أسس نظرية الحجاج في اللغة، وهي نظرية لسانية تهتم بالوسائل اللغوية وبإمكانات اللغات الطبيعية التي يمتلكها المتكلم من أجل تحقيق أهداف حجاجية، فهي تنطلق من فكرة مفادها أننا نتكلم عامة بقصد التأثير". (بلخير، 2005 ص 55) وأن الوظيفة الأساسية للغة هي الحجاج وأن المعنى ذو طبيعة حجاجية". (الشهري، 2004 ، ص457) فاللغة تحمل وظيفة حجاجية تتجلى في بنيتها الصوتية، والصرفية، والتركيبية، والدلالية.

وتهدف هذه النظرية إلى تبيان أن اللغة تحمل بصفة ذاتية وجوهرية وظيفة حجاجية، لوجود مؤشرات كثيرة لهذه الوظيفة في بنية الأقوال نفسها.(العزاوي،2006، ص55) أما موضوعها فهو بيان ما يتضمنه القول من قوة حجاجية، تمثل مكونا أساسيا لا ينفصل عن معناه، يجعل المتكلم في اللحظة التي يتكلم فيها يوجه قوله وجهة حجاجية ما" (المبخوت،2006، ص352).

وقد أُدرج الحجاج في جملة الأفعال الكلامية، فهو عند "فان ايمرين" V. Emern و"خروتندورست" " K. DORST" عبارة عن فعل كلامي مركب، يتألف من أفعال كلامية فرعية تهدف إلى إثبات أو إبطال دعوة معينة، وقد أخذا بمبدإ "سيرل" في تحديد شروط أداء الفعل، وطبقاها على الحجة المثبتة والحجة المبطلة، فالمتكلم يوفق في أداء الحجة المثبتة إذا استوفى الشروط الآتية:(عبد الرحمن،1998، ص26).

أ- شرط المضمون القضوي: على المتكلم أن يأتي بمجموعة من الأحكام الجازمة التي ينطوي كل منها على قضية مخصوصة.

ب- الشرط الجوهري: يحاول فيه المتكلم إثبات الدعوة وإقناع المستمع.

ج- شرط الصدق: على المتكلم أن يعتقد صدق دعوته.

د- الشرط التمهيدي: ينبغي على المتكلم أن يعتقد سلفا أن السامع لا يسلم بدعوته، بل يسلم بالقضايا التي جاء بها لإثباتها.

وتتعارض نظرية الحجاج في اللغة مع كثير من النظريات اللغوية السائدة، كالاتجاه الوصفي الذي يعتبر كل قول إثباتي هو تمثيل ووصف للواقع، كما تتعارض مع الفكر اللغوي والفلسفي القديم والحديث، الذي يرى أن وظيفة اللغة الأساسية هي الإخبار؛ وعليه يكون الجانب الإخباري والوصفي من المعنى هو الأساسي والمعاني الأخرى ثانوية، وهو ما ترفضه نظرية الحجاج فهي تعتبر الظواهر الحجاجية هي أساس وجوهر المعنى، وتنظر إلى القيمة الإخبارية نظرة دونية معتبرة إياها ثانوية، بل تابعا للمكون الحجاجي. (العزاوي،2006،ص ص 70-71).

ففي قولنا: "الجو جميل"، لا ننقل للسامع خبرا لا يعرفه، وبذلك فإن العبارة تفقد طبيعتها الإخبارية، وهو ما يسمح لنا باستنتاج ما يأتي:

- الجو جميل، لنذهب في نزهة.
- الجو جميل، أخرج السيارة.

وعليه فإن هذا الملفوظ " الجو جميل" يشكل حجة تخدم نتيجة معينة.

وإذا كانت القيمة الإخبارية ثانوية في الأقوال الخبرية إلّا ّها تنعدم في الأساليب الإنشائية التي تخلو من الخبر، لكنها قد تؤول انطلاقا من قيمتها الحجاجية، ومثال ذلك عبارة "هل أحضرت السيارة؟"، فهي تتضمن قيمة حجاجية؛ لأنها قد تكون مرادفة لعبارة "لم تحضر السيارة"، أو "لا ينبغي أن تحضر السيارة".

نستخلص من هذا أنالذي يـُعتمد "في بناء الخطاب وتوالي الأقوال وتسلسل الجمل هو القيمة الحجاجية في القول، فهي التي توجه الخطاب، وتحدد المسار الذي يسير فيه". (العزاوي،2006، ص78).

ولمعرفة الحجاج يستوجب التفريق بينه وبين البرهنة أو الاستدلال المنطقي، فالاستدلال "يقع في مجال المنطق، وقوامه ترابط القضايا التي تصف حالات الأشياء في الكون، لذلك فإن القياس مثلا لا يمثل خطابا، أما الحجاج فمجاله الخطاب نفسه الذي تسيره قوانين داخلية، تفرض استئناف القول فيه على هذا الوجه أو ذاك".(العزاوي،2006، ص352). فلفظة الحجاج لا تعني البرهنة أو إثبات شيء ما، ولا تتّبع طرق الاستدلال المنطقي. (العزاوي،2006،ص 56). ويمكن التمثيل لها فيما يأتي:

أ- البرهنة أو الاستدلال:

- كل جريمة يعاقب عليها القانون.
- السرقة جريمة.
- السرقة يعاقب عليها القانون.

ب- الحجاج:

- السماء صافية.

- سيكون الجو حارا هذا اليوم.

نلاحظ في الأمثلة "أ" أنّ استنتاج السرقة يعاقب عليها القانون حتمي لأسباب منطقية، أما استنتاج ارتفاع درجة الحرارة في الأمثلة "ب" يقوم على معرفة العالم، وبذلك فهو استنتاج احتمالي، قد يتحقق، وقد لا يتحقق.

وتتسم الحجج اللغوية بعدة خصائص منها:

أ- سياقية: الحجة عنصر دلالي متضمن في القول، يقدمه المتكلم لخدمة عنصر دلالي آخر، ويلعب السياق دورا هاما في منح الحجة طبيعتها الحجاجية، فقد تكون العبارة حجة في سياق، ولا تكون كذلك في سياق آخر، حتى لو تعلق الأمر بالمحتوى القضوي نفسه، وهو ما ينطبق على النتائج أيضا، فهي تتعدد بتعدد السياقات التي ترد فيها الحجة، ويمكن أن نستشهد على ذلك بالبيت الشعري الشهير، الذي هجا به الشاعر الأموي جرير الراعي النميري وقبيلته:

فَغُضَّ الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

يتضمن الشطر الأول نتيجة مفادها: "غضّ الطرف"، وحجة تخدمها وهي: "إنك من نمير"، وقد كان لكلام جرير من القوة والسلطان ما جعل أفراد قبيلة الشاعر النميري يغضون الطرف فترة من الزمان، غير أن عبارة "أنت من نمير" لن تكون حجة دائما، فلو استخدمت في سياق آخر كالتعارف مثلا سيفقد هذا القول قوته الحجاجية، وبذلك فإن السياق هو الذي أكسبها طابعها الحجاجي. (العزاوي، 2006، ص 127-129).

ويلعب السياق دورا بارزا في تحويل الملفوظ إلى حجة، فالعبارة الواحدة قد تكون حجة أو نتيجة حسب السياق، كما يتدخل في إظهار الحجة وإضمارها، وهذا ينطبق أيضا على النتيجة، والرابط الحجاجي الذي يربط بينهما، ومثال ذلك:

- الجو جميل، إذن سنذهب في نزهة.
- الجو جميل، سنذهب في نزهة.
- الجو جميل.
- سنذهب في نزهة.

فقد صُرّح بالحجة والرابط والنتيجة في المثال الأول، وأضمر الرابط في المثال الثاني، وصرح بالحجة فقط في المثال الثالث، أما النتيجة فيتم استنتاجها من خلال السياق، وفي المثال الرابع صُرّح بالنتيجة فقط.

ب-النسبية: هناك حجج قوية وأخرى ضعيفة فلكل حجة قوة حجاجية معينة، فقد يقدم المتكلم حجة ما لصالح نتيجة معينة، ويقدم خصمه حجة مضادة أقوى منها.

ج- الحجة قابلة للإبطال: إذا كان البرهان المنطقي والرياضي مطلقا وحتميا لا يقبل الإبطال، فإن الحجة اللغوية نسبية ومرنة، تقبل الإبطال، وذلك بحجة أقوى منها. (العزاوي،2006، ص 59).

كما أن الحجاج عرضة للتغيّر والتحوّر، وهذا لعدة عوامل منها: تغير المقام، وتبدل ظروف المتكلم، حتى وإن ظل موضوع النقاش ذاته. (الشهري،2004، ص 461). ويمكن توضيح ذلك فيما يأتي:

- تحصل محمد على شهادة البكالوريا.

فهذه حجة تثبت اجتهاده.

ويمكن نقض هذه الحجة في موضع آخر، وذلك بقولنا:

- تحصل محمد على شهادة البكالوريا، التي تحصل عليها الملايين، وللحظ دور هام فيها.

بذلك فإن الحجة عرضة للتبدل والتغيّر، فقد "لا تختلف الخطابات في نوع الفعل الإنجاري، أو في الوحدات المعجمية، وإنما تختلف في هدف كل من طرفي الخطاب، فتستخدم حجة واحدة من جهتين مختلفتين". (الشهري، 2004، ص463).

ويهدف الحجاج إلى الإقناع، ولهذا الأخير مجموعة من المسوغات منها: (الشهري،2004، ص 446).

أ- تأثيره في المرسل إليه أقوى، ونتائجه أثبت وأبقى؛ لأنه لا يشوبه فرض بالقوة.

ب- تمايزه عن الاستراتيجيات الأخرى كالإكراه لفرض القبول دون حصول الاندفاع الداخلي.

ج- يعتبر الإقناع الهدف الأسمى لكثير من أنواع الخطابات، فالمرسل يفضل استعمال الإقناع ولو كان ذا سلطة تخوّله استعمال طرق أخرى.

د- شمولية الإقناع: فهو يمارس على جميع الأصعدة، فالحاكم يحاول الإقناع، والفلاح كذلك. . . ، هذا ما يعزز انتماءه إلى الكفاءة التداولية للإنسان السّوي، بوصفها دليلا على مهاراته الخطابية.

هـ- تحقيق الكثير من الأهداف التربوية، فقد استخدمه الأنبياء لهداية الناس.

وكي يتمكن الحجاج من أداء وظيفته الأساسية وهي الإقناع والتأثير لابد أن يكون متكاملا، فلو نقصت حلقة في بنائه تعثرت العملية، لذلك على المخاطب أن يبني حجاجه ضمن سلسلة تسمح للمتلقي بتتبع بناء الخطاب لتقبل مواقفه، فعليه توخي الآتي: عنصر الحوارية الذي يساهم في استمرار الحجاج من البداية إلى النهاية، والتجانس وذلك بخضوعه لمقتضيات البناء اللغوي للغة المكتوبة. (بلخير،2005، ص 202).

وعليه فإن لنظرية الحجاج في اللغة مجموعة من القواعد التي ينبغي على المتكلم إتباعها لتحقيق الهدف الأساسي له وهو الإقناع.

ثانيا- الحجاج عند العرب القدامى: لعب الحجاج دورا هاما في الحياة العقائدية والسياسية في البيئة العربية والإسلامية، فقد كانت استراتيجية الحجاج واضحة في القران الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وفي الخطابات

التي سبقت هذه الفترة بكثير، وذلك في المنافرات القبلية في العصر الجاهلي، ثم تنامت بعد البعثة، وتبلورت في كثير من العلوم، مثل علوم الفقه وأصوله، وعلم الكلام، والعلوم اللغوية، وقد كان الإقناع مطية أطراف الخطاب في المسامرات والندوات والنقاشات، مما جعله السبيل الأقوم لإبراز مكنونات هذه العلوم والدفاع عنها(الشهري، 2004، ص447).

ويعّد خطاب المناظرة في التراث العربي من أبرز أنواع الخطابات التي تهدف إلى الإقناع، إذ تظهر فيه سمات الكفاءات التداولية والقدرة على توظيفها حسب متطلبات السياق، فهو المطلب الأساسي في المناظرات، سواء كانت دينية، أو سياسية، أو لغوية. . . . (الشهري، 2004، ص449).

وقد اهتم البلاغيون بالحجاج والإقناع، ويعد الجاحظ من أبرز البلاغيين الذين حاولوا التقعيد لهذه الاستراتيجية، وذلك في كتابه "البيان والتبيين"، حيث يتنازع مفهوم البيان وظيفتان؛ الأولى إفهامية، والثانية حجاجية إقناعية، ولعل ما جعله يهتم بالحجاج انتماؤه إلى المعتزلة الذين يعرفون بالدفاع عن آرائهم ومحاولة دحض آراء خصومهم.

ويظهر اهتمام الجاحظ بالإقناع في حديثه عن البلاغة، حيث قال: "أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخير اللفظ، لا يكلّم سيّد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السّوقة، ويكون في قُواه فضل التصرف في كل طبقة، ولا يدقق المعاني كل التدقيق، ولا ينقّح الألفاظ كل التنقيح، ولا يصفيها كل التصفية، ولا يهذبها غاية التهذيب، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيما، أو فيلسوفا عليما" (الجاحظ،1998، ص92).

فقد جمع بين العناصر اللغوية، وما يحيط بها أثناء العملية التخاطبية، مركزا على المتكلم لتحقيق الإقناع والتأثير في المتلقي، وبذلك فقد تناول الجاحظ الإستراتيجية الحجاجية في كتابه البيان والتبيين، حيث ذكر الخصائص الايجابية للخطيب التي تمنح القبول لخطابه، وتنبّه إلى الخصائص السلبية للخطيب، والتي تضعّف موقفه مثل العيوب النطقية، والعّي. . ، وبيّن ما يجب أن يتحلى به من أخلاق، ولم يغفل العلامات السيميائية ودورها الحجاجي، ولم يكتف بذلك، بل ربط مفهومي البيان والبلاغة بالإقناع ، هذا ما جعل غايته في البيان والتبيين هي الخطاب الإقناعي الشفوي. (الشهري، 2004، ص448).

كما تنبه الجاحظ في وقت مبكر إلى هذه الأبعاد التداولية، فهو "أول مفكر عربي نقف في تراثه على نظرية متكاملة تقدر أن الكلام وهو المظهر العملي لوجود اللغة المجرد ينجز بالضرورة في سياق خاص يجب أن تراعى فيه بالإضافة إلى الناحية اللغوية جملة من العوامل الأخرى كالسامع والمقام وظروف المقال، وكل ما يقوم بين هذه العناصر غير اللغوية من روابط".(صّود، 1981، ص185).

وقد جعل الوظيفة الحجاجية من وظائف البلاغة، وهو ما أورده على لسان إسحاق بن حسان بن قوهي حيث قال: "لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد قط، سئل ما البلاغة؟ قال: البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة؛ فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج". (الجاحظ، 1998، ص 115-116).

وقد أقّر ابن خلدون بضرورة استعمال الحجاج بوصفة السبيل الأمثل لتحقيق الإقناع في عصر كثرت فيه الخلافات التي ولدت المناظرات.(الشهري، 449،2004).

كما تناول أبو الوليد الباجي الحجاج بالتفصيل في كتابه: "المنهاج في ترتيب الحجاج" فهو يعتبر أن الجدل أو الحجاج: "من أرفع العلوم قدرا وأعظمها شأنا؛ لأنه السبيل إلى معرفة الاستدلال وتمييز الحق من المحال، ولولا تصحيح الوضع في الجدل لما قامت حجة ولا اتضحت محجّة، ولا علم الصحيح من السّقيم ولا المعوّج من المستقيم". (الباجي، دت، ص 8). فقد سما بالحجاج إلى أعلى الدرجات، فجعله من أعظم العلوم لما له من أهمية بالغة خاصة في عصره، فهو يعتبره سبيل الوصول إلى الحق وتجنب الباطل.

وقد وضع أبو الوليد الباجي مجموعة من الشروط التي ينبغي على المتكلم اتبّاعها لبلوغ مراده المتمثّل في الإقناع، حيث قال: "لا يتكلّم على ما لم يقع له العلم به من جهته، ولا يتكلّم إلا على المقصود من كلامه، ولا يتعّرض لما لم يقصده مما جرى من خلاله، فإنّ الكلام على ما لم يقصده عدول عن الغرض المطلوب، ولا يستدلّ إلا بدليل قد وقف عليهوخبره وامتحنه قبل ذلك وعرف صحته وسلامته؛ لأنّه ربما يستدل بما لم يمعن في تأمله ولا تصحيحه، فيظفر به خصمه ويبيّن انقطاعه، ويجتهد في الاختصار، فإن الزلل مقرون فيه بالإكثار" (الباجي، دت، ص10).

وبذلك فقد استطاع أن يقّعد للحجاج، ويضع له مجموعة من الشروط وهي: العلم، والقصد والاستدلال بالّدليل الصحيح.

ثالثا: الاستعارة الحجاجية:

تعد الاستعارة من أقوى الآليات اللغوية وقد حظيت باهتمام العلماء قديما وحديثا، فقد تطرق إليها البلاغيون العرب، فعرفها الجرجاني بقوله: "اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي معروف، تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلا غير لازم". (الجرجاني، دت، ص30).

وتنقسم الاستعارة بحسب وظيفتها الحجاجية إلى قسمين: استعارة حجاجية، واستعارة غير حجاجية؛ تعّد الاستعارة الحجاجية من بين الوسائل اللغوية التي يستخدمها المتكلم لتوجيه خطابه وتحقيق أهدافه الحجاجية، فهي الأكثر انتشارا لارتباطها بمقاصد المتكلمين وبسياقاتهم التخاطبية والتواصلية، حيث تُستعمل في اللغة

اليومية، وفي الكتابات الأدبية والسياسية والصحفية والعلمية، أما الاستعارة غير الحجاجية أو البديعية فتكون مقصودة لذاتها، ولا ترتبط بمقاصد المتكلمين وأهدافهم الحجاجية، ويكمن هدفها في الزخرف اللفظي والتفنن الأسلوبي. (العزاوي، 2006، ص ص 108-109).

وقد تنبه الجرجاني إلي هذا التقسيم، حيث قال: "ثم أنها تنقسم إلى قسمين:

أحدهما: أن يكون لنقله فائدة.

والثاني: أن لا يكون له فائدة، وأنابدأ بذكر غير المفيد فإنّ ه قصير الباع، قليل الاتساع. . . وموضع هذا الذي لا يفيد نقله، حيث يكون اختصاص الاسم بما ُوضع له من طريق أريد به التوسع في أوضاع اللغة، والتنوق في مراعاة دقائق في الفروق في المعاني المدلول عليها، كوضعهم للعضو الواحد أسامي كثيرة . . . وأما المفيدة فقد بان لك في استعارته فائدة ومعنى من المعاني وغرض من الأغراض، لولا مكان تلك الاستعارة لم يحصل لك". (الجرجاني، دت، ص ص 32-33).

وترتبط الاستعارة الحجاجية ارتباطا وثيقا بالّسلّم الحجاجي، وهو نظام ترتيب الحجج حسب قوتها، حيث تكون الحجة الأقوى في أعلى درجات السلم الحجاجي، والحجة الأضعف في أدنى درجاته. وتكمن أهمية السلالم الحجاجية أساسا في "إخراج قيمة القول الحجاجي من حيز المحتوى الخبري، وهذا يعني أن القيمة الحجاجية لا يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب؛ لأنها لا تخضع لشروط الصدق المنطقي، فهي كما ذكرنا ليست قيمة مضافة إلى البنية اللغوية بل مسجلة فيها يتكّفن بها التنظيم الداخلي للغة". (المبخوت، 2006، ص370).

وللّسلم الحجاجي ثلاثة قوانين وهي: (عبد الرحمن، 1998، ص ص277-278).

1- قانون الخفض: وفحواه أنه إذا صدق القول في مراتب معينة من السلم، فإن نقيضه يصدق في المراتب التي تقع تحتها.

2- قانون تبديل الّسلم: وفحواه أنه إذا كان القول دليلا على مدلول معين، فإنّ نفيه سيكون حجة لصالح النتيجة المضادة، ومثال ذلك:

- محمد مجتهد، لقد نجح في الامتحان.

- محمد ليس مجتهدا، لم ينجح في الامتحان.

3- قانون القلب: مقتضى هذا القانون أنه إذا كان أحد القولين أقوى من الآخر في الّسلم الحجاجي، فإن نقيض الثاني أقوى من الأول.

ويكون القول الاستعاري دائما في أعلى درجاته بالمقارنة مع بقية الأقوال العادية، ولهذا فإن للاستعارة الحجاجية قوة حجاجية عالية، ومثال ذلك:

1- محمد كريم.

2- محمد بحر.

تشكل الجملة الأولى قولا عاديا، أما الثانية فهي استعارة، والملاحظ أن للجملة الثانية قوة حجاجية أكبر من الأولى، ولذلك ستكون في السلم الحجاجي وفق الشكل الآتي:

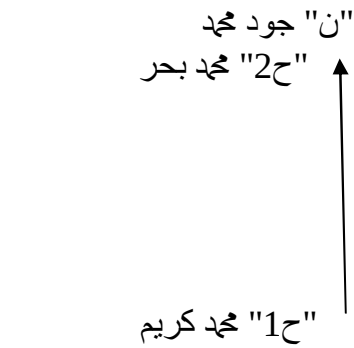

ونظرا لقوة الحجة الاستعارية فإنّه لا يمكن أن يرد دليل مضاد بعد القول الاستعاري، فهو لا يقبل الإبطال، عكس الأقوال العادية التي يمكن إبطالها، ومثال ذلك:

- الجو جميل، لكنني متعب.

يتكون هذا القول من عبارتين، يربط بينهما الرابط "لكن"، تشكل العبارة الأولى دليلا يخدم نتيجة من قبيل: "لنخرج في نزهة"، أما الثانية فهي حجة في مصلحة النتيجة المضادة، وقد وجهت هذه الحجة القول بمجمله.

أما القول الاستعاري فهو لا يقبل أن يجيء بعده رابط من روابط التعارض الحجاجي. (العزاوي، 2006، ص106-107). وهذا ما يفسر لنا لحن الجملة الآتية:

- محمد بحر لكنه مسرف.

وإذا قمنا باستبدال هذا القول بقول عادي سنحصل على جملة سليمة:

- محمد كريم لكنه مسرف.

ومن بين الاستعارات الحجاجية الواردة في مقامات الحريري: "**وظعن يقتاد القلب بأزمته**". (الحريري،2003، ص27). يتضمن هذا الملفوظ استعارة حجاجية، تمثل حجة تدعم نتيجة من قبيل: "صعوبة الفراق"، قد لجأ إليها المتكلم لما لها من سلطة حجاجية أقوى من غيرها، فلو قال: "حزنت لفراقه"، لما كان له ذلك الوقع في النفوس الذي نتج من الاستعارة، لذلك فإن للاستعارة الحجاجية القدرة على التأثير في المتلقي

أكثر من القول العادي، وفي هذا يقول طه عبد الرحمن: "العلاقة الاستعارية هي أدل ضروب المجاز على ماهية الحجاج". (عبد الرحمن، 1998، ص 233).

ويمكن تمثيل ذلك في السلم الحجاجي الآتي:

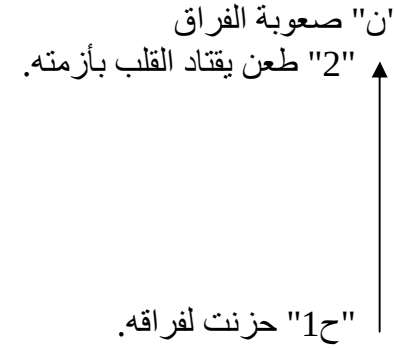

وفي قول المرأة التي جاءت عند القاضي لتشكو من زوجها الذي أسرف مالها استعارة حجاجية، حيث قالت: **"فما بر َحَ يبيعُ في سوقِ الهضْمِ، ويُتْلِفُ ثَمَنَهُ في الخَضْمِ والقَضْمِ، إلى أنْ مزّقَ ما لي بأسْوِهِ".** (الحريري، 2003، ص89).

يشتمل هذا الملفوظ على ثلاثة حجج تخدم نتيجة واحدة من قبيل: "تبذير الرجل لمال زوجته"، وقد رُتبت الحجج ترتيبا تصاعديا خاضعا لمنطق اللغة، بحيث تكون كل حجة أقوى من سابقتها، لذلك جاءت الاستعارة الحجاجية آخر حجة في هذا الملفوظ، وذلك في قولها: " إلى أنْ مزّقَ ما لي بأسْوِهِ"، فقد استعارت كلمة "مزّق" ووضعتها في غير موضعها، حيث شبهت ممتلكاتها بقماش يمزَّق، وحذفت المشبه به، فهي استعارة مكنية شكلت حجة قوية استطاعت من خلالها هذه المرأة إقناع القاضي والتأثير فيه.

وبذلك فإن للاستعارة سلطان لا يضاهيه أي سلطان؛ لأن المتكلم يتعّمد استخدامها لتغيير رأي المرسل أو إقناعه بقضية ما، "فالمستعير يقصد أن يغير المقاييس التي يعتمدها المستمع في تقويم الواقع والسلوك، وأن يتعرف المستمع على هذا القصد منه، وعلى معنى كلامه وما يلزم عنه و أن يكون هذا التعرف سبيلا لقبوله خطابه، وإقباله على توجيهه. (عبد الرحمن،1998، ص312-313).

ويمكن توضيح القوة الحجاجية لهذه الحجج في السلم الحجاجي الآتي:

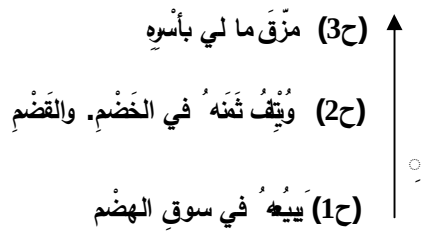

وتظهر قوة هذه الاستعارة الحجاجية إذا قمنا بتحويلها إلى قول عادي يحمل معناها، فلو قالت: "أخذ كل ممتلكاتي"، لكان الكلام أضعف وقعا على نفس المتلقي، لذلك استخدمت الاستعارة الحجاجية لإقناع القاضي والتأثير فيه، والإجهاز على خصمها.

وبذلك فقد فرضت الاستعارة نفسها على المتكلم، لما لها من دور فّعال في التأثير والإقناع، وقد تنبه الجرجاني إلى دورها في التأثير، فقال: "ومثاله قولنا: "رأيت أسدا" وأنت تعني رجلا شجاعا، و"بحرا"، تريد رجلا جوادا. . . فقد استعرت اسم الأسد للرجل، ومعلوم أنك أفدت بهذه الاستعارة ما لولاها لم يحصل لك، وهو المبالغة في وصف المقصود بالشجاعة، وإيقاعك منه في نفس السامع صورة الأسد في بطشه وإقدامه وبأسه وشدّته، وسائر المعاني المركوزة في طبيعة، مما يعود إلى الجرأة... ". (الجرجاني،1992، ص33).

وعندما طلب القاضي من الرجل أن يبرر فعلته أجابه بقصيدة شعرية تتضمن مجموعة من الاستعارات الحجاجية، يحاول من خلالها إقناع القاضي بأنه ليس مذنبا ولا مخادعا، منها:

أغوصُ في لُجّةِ البَيان فأخ تارُ اللآلي منْها وأنْتَخبُ
وأجْتَني اليانعَ الجَني منَ ال قوْلِ وغيري للعود يحْتَطِبُ
وآخُذُ اللفْظَ فضةً فإذا ما صُغْتُهُ قيلَ إنّهُ ذهبُ
وكُنتُ منْ قبلُ أمْتَري نشَباً بالأَبِ المُقْتَنى وأحتَبُ (الحريري،2003، ص91).

فالملاحظ في هذه الأبيات الشعرية أن المتكلم أتى بمجموعة من الاستعارات الحجاجية ليقنع القاضي بأنه ليس مذنبا ولم يخطئ في حق زوجته، فهو يعلم أن نجاح الخطاب يكمن في مدى قدرة التقنيات الحجاجية المستخدمة للإقناع، ومدى مناسبته للسامع، إضافة إلى استثمار الناحية النفسية في المخاطب لتحقيق التأثير المطلوب (الحباشة،2008، ص21).

فكل بيت من هذه الأبيات يتضمن استعارة حجاجية، حيث شبّه في البيت الأول البيان بالبحر، وحذف المشبه به، والقرينة الدالة على الاستعمال المجازي هي لفظة "أغوص"تقنية استُعير لفظ الغوص للبيان، ليبيّن

قدرته في التعمق في بليغ العلوم وأخذ الثمين منها، أما البيت الثاني فقد شبه فيه مكاسبه بأفضل ما يجنيه المرء وهو الفاكهة في مرحلة نضجها، وقد صرح بالمشبه به، وحذف المشبه، وهي استعارة تصريحية، واستعار في البيت الأخير لفظة "أحتلب" للكسب، وتظهر قوة هذه الاستعارة في تناسبها مع سياق التلفظ، فالرجل أراد أن يثبت للقاضي أنه كان يسترزق بأسهل الوسائل وهو الكلام، ويجني منه مالا وفيرا، لذلك فإن كلمة " أحتلب" هي الأنسب في هذا الموضع، لما لها من دلالات متشعبة.

إن هذا يدل على اعتماد الاستعارة الحجاجية على المستعار منه لإقناع المرسل إليه، يقول طه عبد الرحمن: "ويظهر هذا التوجه العلمي للاستعارة في ارتكازها على المستعار منه، سواء أصرح به أم لم يصرح به؛ وغالبا ما يقترن هذا الطرف فيها، حاليا أو مقاميا، بنسق من القيم العليا، إذ ينزل منزلة الشاهد الأمثل والدليل الأفضل، فتكون الاستعارة بذلك أدعى من الحقيقة لتحريك همة المستمع إلى الاقتناع بها والالتزام بقيمتها". (عبد الرحمن،1998،ص312).

وتكمن فعالية الاستعارة في التناسب مع ما يقتضيه السياق، إذ تعد الاستعارة الحجاجية أقوى الآليات اللغوية، ويظهر التوجه العملي للاستعارة في ارتكازها على المستعار منه، فهي أدعى من الحقيقة لتحريك هّمة المرسل إليه إلى الاقتناع، وهو ما يهدف إليه المرسل (الشهري،2004، ص 496).

وقد استطاع الرجل إقناع القاضي برأيه رغم الموقف العدائي لهذا الأخير منه، وذلك عن طريق مجموعة من الأقوال الحجاجية التي أحسن توظيفها في سياقها فكان لها المقدرة على تغيير رأي القاضي المتمثل في عقابه، وعليه فإن الحجاج لا يكتسي صبغة الإكراه، ولا يعتمد على منهج القمع، وإنما ينتهج سبلا استدلالية متنوعة تجعل المخاطب يقتنع بالرأي، وإذا ازدوجت أساليب الإقناع بأساليب الإمتاع تكون أقدر على التأثير في المخاطب، وتوجيه سلوكه نحو ما يراه المتكلم. (عبد الرحمان، 2000، ص 38).

وفي قول الحارثُ بنُ هّملٍ عندما خدعه أبو زيد وباعه غلاما حرا: **" فوّدعْتُهُ لابِساً ثْوبَ الخجَلِ والحَزَنِ، ساجِباً ذْيلَي الغْبنِ والغَبنِ" (**الحريري،2003، ص369).

يشتمل هذا الملفوظ على استعارتين حجاجيتين تخدمان نتيجة واحدة من قبيل: "الشعور بالمهانة والإذلال"، وتكمن الاستعارة الأولى في قوله: " **فوّدعْتُهُ لابِساً ثْوبَ الخجَلِ والحَزَنِ"**، فقد جّسد فيها المتكلم الخجل والحزن، وأعطى لهما صورة مادية عندما البسهما الثوب، مما جعل الملفوظ أكثر وقعا في نفس المتلقي، لذلك فإن من مصلحة الخطاب الحجاجي تقوية طرحه بالاعتماد على الأساليب البلاغية والبيانية التي تظهر المعنى بطريقة أجلى وأوقع في النفس؛ لأن مجال الحجاج هو الاحتمال والتوقع، فهو غير مؤكد. (الحباشة، 2008، ص 50).

وتكمن الاستعارة الثانية في قوله: " **ساحِباً ذْيلَي الغْنِ والغَنِ**"، فقد جعل المتكلم لكل من الغْنِ والغَنِ ذيلا، وهو ما يزيد في القوة الحجاجية للملفوظ الذي يصب في مصلحة المتكلم، وهو من أراد أن يقنعنا بتلك الحالة المزرية التي آل إليها، وقد نجح بهذا الخطاب التلميحي؛ لأنه يدرك أنه يستطيع من خلاله بلوغ أهدافه الحجاجية، ويعلم أن كل هذا يجعل المتلقي يتهيأ لتقبل الاستعارة الحجاجية، ويؤولها تأويلا صحيحا، وذلك بالاستعانة بالمعارف المشركة، والسياق، وكل ما يحيط بالعملية التخاطبية لفك شفراتها.

وعليه فإن دلالة الخطاب الحجاجي لا تتوقف على الظاهر من الملفوظ فحسب، بل يمكن أن يكون الحجاج بالخطاب التلميحي أيضا، فالمرسل يزاوج بين هذين الضربين في الحجاج، والمرسل إليه يفهم ما يضمره في خطابه تماما مثلما يفهم ما يظهره فيه، فإذا كانت كفاءة المرسل التداولية تتجلى في صناعة الخطاب، فإن الكفاءة التداولية للمرسل إليه تتجلى في تأويل الخطاب للوصول إلى مقاصد المرسل وإدراك حججه. (الشهري، 2004، ص476).

خاتمة:

نصل ختاما إلى أنّ خطاب المقامات يشكل مادة دسمة للدراسات التداولية لما فيه من قضايا لغوية وسياقية، فهو يتضمن الكثير من القيم الاجتماعية التي جعلته قريبا من واقع الحياة اليومية، ويزخر باللغة الحجاجية، إذ يحمل في طياته طابعا حجاجيا خالصا، يريد من خلاله المتكلم التأثير في المخاطب، وإقناعه، وتعد الاستعارة الحجاجية من أهم الآليات البلاغية المؤثرة، حيث كان لها وقع فّعال في عقل وقلب المتلقي، فهو يتفاعل معها باستمرار، وقد ارتبطت بمقاصد المتكلمين وبسياقاتهم التخاطبية والتواصلية.

قائمة المراجع:

- الباجي،أبو الوليد.(د ت)، *المنهاج في ترتيب الحجاج*. تحقيق عبد المجيد تركي. دار العرب الإسلامي.
- بلخير، عمر.(2005- 2006)، *معالم لدراسة تداولية وحجاجية للخطاب الصحفي الجزائري*، دكتوراه (مخطوط)، جامعة الجزائر.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر.(1998). *البيان والتبيين*. ط7. تحقيق: محمد عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي.
- الجرجاني، عبد القاهر. (د ت). *أسرار البلاغة*. دط. تحقيق محمود محمد شاكر. جدّة: دار المدني.
- الحريري، أبو محمد القاسم بن عثمان. (2003). *مقامات الحريري*. ط4. بيروت: دار الكتب العلمية.
- الحباشة، صابر.(2008). *التداولية والحجاج مداخل ونصوص*. ط1. دمشق: صفحات للدراسات والنشر.

- الشهري، عبد الهادي بن ظافر.(2004). *استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية*. ط1. بنغازي ليبيا:دار الكتب الوطنية.

- صّمود، حمادي.(1981). *التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس*. دط. منشورات الجامعة التونسية. المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية.

- عبد الرحمان، طه.(2000). *في أصول الحوار وتجديد علم الكلام*. ط2. المغرب:المركز الثقافي العربي.

- عبد الرحمن، طه.(1998). *اللسان والميزان أو التكوثر العقلي*. ط1. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

- العزاوي، أبو بكر.(2006). *التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه*. سلسلة ندوات ومناظرات رقم 134. الدار البيضاء: مطبعة النجاح.

- العزاوي، أبو بكر.(2006). *الحجاج والمعنى الحجاجي*، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 134.الدار البيضاء: مطبعة النجاح.

- العزاوي، أبو بكر. (2006). *اللغة والحجاج*. ط1. العمدة في الطبع.

- المبخوت، شكري. (د ت). *نظرية الحجاج في اللغة. أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم*. تونس. جامعة الآداب. والفنون.